ما اشبه اليوم بالامس

(لابي العلاء المعري)

أعوذ بالله من قوم اذا سمعوا ... خيرا أسروه أو شرا أذاعوه
ماحُم كان ولم تدفعه مشفقة ... وفصل الامر في الدنيا مطاعوه
ان ابن يعقوب[1] نال الملك عن قدر ... برغم ناس لبعض التّجر باعوه
وخالد بن سنان ليس ينقصه ... من قدره الكون في حي أضاعوه
مالي رأيت دعاة النبي ناطقة ... والرشد يعصمت خوف القتل داعوه
لا يفرحن بمولود ذوو شرف ... فانما بشراه الطفل ناعوه
كذلك الدهر غني من يصاحبه ... ولم يعد بسوى الخسران ساعوه
والله حق وان ماجت ظنونكم ... وان اوجب شيء ان تراعوه

ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ *

٤

(أهل العلم والتعليم)

قلنا ان سادتنا وكبراءنا هم الخلفاء والامراء الذين بيدهم امر الاحكام ، والعلماء الذين بيدهم زمام التعليم ، والمرشدون الذين تصدوا التربية العملية ، وقد مضى الكلام على الخلافة والخلفاء وفي غضونه إلماع الى

---

(١) في نسخة الاصل : ان النجاشي

*) فاتحة العدد السادس والثلاثين الصادر في ١٢ رجب سنة ١٣١٦

سيرة الامراء، ورأينا أن ذنب الخلفاء الاكبر الذي ضيع الدين وفرق أهله شيعا هو عدم جمع المسلمين على عقيدة واحدة لا مجال للخلاف فيها ، والاقرار على أن كل ما وراءها يعد من الابحاث العلمية والتفنن في طرق الفهم ولا يمس أصل الدين ، والحظر على الدعوة والتعليم بما يمس العقيدة الاساسية المتفق عليها كما كان عليه الامر في عهد خلافة الراشدين ، فقد خاض صبيغ (كعليم) التميمي على عهد عمر رضي الله تعالى عنه في المتشابه وسأل عن تأويل القرآن فجلده عمر حتى اضطربت الدماء في جلده ، وفي رواية حتى شجه وسال الدم على وجهه ولما قال جئت ابتغي العلم قال له بل جئت تبتغي الضلالة ، ثم قال احملوه على قتب واخرجوه الى بلاده ثم ليقم خطيباً فليقل ان صبيغاً طلب العلم فاخطأه ، وكتب الى أهل البصرة أن لا تجالسوه فكان بينهم كالبعير الاجرب لا يجلس الى قوم الا تفرقوا عنه وتركوه وحده . ولكن الخلفاء والملوك تركوا الناس وشأنهم من الفوضى العلمية والدينية زمنا ، وانتصروا للبدعة طوراً ودعوا اليها بل الى الكفر في طور آخر (كالفاطميين الذين دعوا الى مذهب الباطنية) وكل ذلك مرت الاشارة اليه في المقالات السابقة . ومن جراء هذا قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين اذلم يستجمع ذلك غيرهم

ومن سوء حظ المسلمين ان فساد الخلفاء والامراء تبعه في الغالب فساد العلماء الذين كان يرجى منهم تقويم العوج واصلاح الخلل ومداراة

العلل، واتبعوا خطواتهم في كل فج وساعدوهم باسم الدين على كل أمر، وفي كل عصر من العصور السالفة لم يرج في سوق العلوم حتى الدينية الا ما راج عند الامراء والسلاطين، قال الامام حجة الاسلام الغزالي في بيان سبب اقبال الخلق على علم الخلاف في كتاب العلم من احياء علوم الدين ما نصه .

«اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الاقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق باحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء والى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين (بكسر الصاد أي جانبه) ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا اذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء الى الالحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات، [1] فرأى أهل تلك الاعصار عز العلماء واقبال الأئمة والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم، فاشر أبوا لطلب العلم توصلا الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة

(١) المنار: كان ذلك الالحاح من حسنات الخلفاء وذلك الاعراض من سوء حظ المسلمين اذ كان سبباً في خروج القضاء عن أهله وتوسيده لمن شايع الظلمة على الافساد

فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا منهم الولايات والصلات فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال، فاصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين، وبعد ان كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين أذلة بالاقبال عليهم الا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله، وقد كان أكثر الاقبال في تلك الاعصار على علم الفتاوى والاقضية لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات. ثم ظهر بعدهم من الصدور والامراء من يستمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فغلبت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا ان غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم ان غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين اشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية الى اهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الاولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا (انصبوا) على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذاهب وتمهيد أصول الفتاوى،

وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه الى الآن ، وليس ندري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الاعصار. فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع إمام آخر من الائمة أو الى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب من رب العالمين !!! » اه

أقول هذا ما قاله حجة الاسلام في جماهير علماء المسلمين الى عهده في أواخر القرن الخامس، والقرون الخمسة الاولى خير زمن المسلمين علما وعملا وتمسكا بالدين ، وقد كان الامر من بعد ذلك أدهى وأمر: جهالة عمياء ، وليال ظلماء ، وانتشار فوضاء ، ولا يعني الحجة بكلامه الا الغالب الذين كان بيدهم الزمام ، فأضلوا الامة بغش الامام ، وقد تولد من خلافهم في قواعد العقائد التفرق في الدين وتكفير بعضهم بعضا اعراضا عن القرآن واتباعا لشهواتهم وحظوظهم . أخبر الله تعالى انه وصى الانبياء (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) وكفى بذلك تهديداً ، وأي تهديد أعظم من اثبات أن المفرقين لا تجمعهم بصاحب الدين جامعة ما ؟؟ وقد نهى عن ذلك نهيا صريحا زيادة عما تضمنه هذا الاخبار من النهي حيث قال (ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) قال المفسرون أي فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذي أضلها عن دينها . والآيات القرآنية الآمرة بالاتحاد

في الدين وعدم التفرق فيه كثيرة (وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

ولو ان غرضهم قمع المبتدعة والضال عن الحق كما زعموا لما حدث عن ذلك ماحدث من التفرق والتشيع الذي شق عصا الجماعة ورمى المسلمين بالانقسام الذي أوصلهم الى ماترى . أليس قد كان الخلاف بينهم لفظياً في كثير من المسائل كما أوضحه المتأخرون بعد انتهاء عصور المشاغبات والغلو في التعصب والتحزب ؟ فكيف خفي عليهم ذلك وهم أعلم من المتأخرين الذين اهتدوا اليه لولا غشاوة الهوى على أبصارهم ووقر الانتصار للنفس في أسماعهم ! !

أليس منها مالا فائدة من الخلاف فيه ولا يترتب عليه حكم كمسألة من هو الاحق بالخلافة من الصحابة التي كانت أعظم صدمة على الاسلام والمسلمين ولا تزال كذلك الى اليوم ؟ اذهي التي قسمت المسلمين الى قسمين كبيرين وهما السنية والشيعة . وقد أطال في بيان التلبيس في تشبيه هذه المظاهرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف الامام حجة الاسلام في الاحياء فليرجع اليه من شاء ، وما أحسن ماقاله في هذا المقام استاذنا الاكبر صاحب رسالة التوحيد وهو :

« بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمق التي اختبط بها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد حتى اذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على مابيده ، فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد

الى من في وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ولو افقهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين »

ولو شئنا بيان الفتن والحروب التي تولدت من هذه الخلافات لاحتجنا الى تأليف مجلدات

وأما الخلاف في الفروع فهو وان كان دون الخلاف في قواعد العقائد فقد نجم عنه فتن كبيرة وأضر بالمسلمين ضررا عظيما، ناهيك بالفتنة التي أثارها دخول العلامة ابن السمعاني في مذهب الشافعية، والفتنة التي هاجر بسببها امام الحرمين والامام القشيري وأضرابهم من وطنهم، والفتنة التي دفعت بالشافعية الانتصار بالتتار على الحنفية فكان ذلك سبب هلاك الفئتين، ولم تزل كتب الفقه محشوة بما يخجل المنصف من قراءته كقول بعض الحنفية يجوز للحنفي ان يتزوج بشافعية قياسا على الذمية، وقد أفتى بعض حنفية طرابلس الشام لهذا العهد بعدم جواز الاقتداء بشافعي قال لان الشافعية يشكون في ايمانهم!! «والشك في الايمان كفر» لان أئمتهم جوزوا قول أنا مسلم ان شاء الله، فذهب بعض الشافعية الى مفتي طرابلس وطلب منه قسمة المساجد فتلافى الامر المفتي (جزاه الله خيرا) واستحضر ذلك الحنفي ووبخه ونهاه

والحاصل ان المسلمين بدأوا ينحرفون عن هدي الدين الاسلامي من العصر الاول، فقد نقل العلامة الشاطبي في الاعتصام وغيره ان الصحابة الذين عمروا كثيرا كانوا ينكرون ما رأوا في آخر حياتهم أشد الانكار، حتى قال أبو الدرداء وأنس بن مالك (رضي الله عنهما) لو رجع النبي صلى الله عليه وسلم الى الدنيا لم يعرف من دينه الا هذه الصلاة وقد

روينا عن شيخنا ابي المحاسن القاوقجي رحمه الله تعالى حديثا مسلسلا بقولهم: رحم الله فلانا فكيف لو رأى زماننا هذا وهو ينتهي الى عائشة رضي الله عنها فانها أنشدت قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وقالت رحم الله لبيدا فكيف لو رأى زماننا هذا . وفي كلام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه من شكوى الانحراف عن الدين العجب العجاب . هذه هي الدلالة القولية وحسبك بدلالة الاثر فلولا انحراف العلماء والخلفاء لما انحرفت العامة ولما وقع المسلمون بهذه الرزايا والمصائب التي انتهت بهم الى فقر العقول وفقر الايدي وضياع السلطة وتمزقوا كل ممزق . وجملة ذنوب العلماء (١) الاختلاف في الدين (٢) الاعراض عن القرآن والسنة (٣) الاعراض عن علم التهذيب الذي هو لب الدين (٤) الاعراض عن معرفة سنن الكون التي أرشد اليها القرآن كثيرا (٥) معاداة العلوم والفنون التي عليها مدار العمران (٦) ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى الدين (٧) ترك الخطابة في يوم الجمعة والخروج بخطبة الجمعة عما شرعت له (٨) الخروج بالدين عن سذاجته بتوسعهم في الواجبات العينية وصعوبة الكتب بحيث صارت الحنيفة السمحة التي كان يتلقاها الاعرابي من صاحب الشريعة في مجلس واحد لا يمكن أن يعرفها الانسان الا في سنين طويلة ولا سيما اذا كان له عمل آخر (٩) عدم مراعاة الزمان في أحكام المعاملات القضائية حتى اضطر الحكام الى العمل بالقوانين الوضعية، مع ان الشريعة أوسع من ذلك وأصولها تناسب كل عصر، وقد أوصلنا الجمود على مذهب واحد الى تضييع الشريعة

فكان الاختلاف في الفروع أيضا نقمة مع انه لم يكن في الاصل الا رحمة (١٠) عسر طريقة التعليم وكل موضوع من هذه المواضيع يحتاج الى كلام كثير وموعدنا الاعداد الآتية ان شاء الله تعالى

تقويم الافكار

(لحضرة الفاضل حمده افندي (بك) عبده المحامي)

(تابع لما قبله)

٣

ومما يزعزع سياسة الملك الداخلية ويسبب تقويض اركان الدولة كثرة الاجناس واختلاف الاديان، ولهذا كلما كانت رعية الدولة مؤلفة من اجناس متعددة كلما صعبت قيادتها وكانت اقرب الى الهياج من المكينة والى القلق من الراحة، فان اختلاف الاجناس والاديان مما يؤدي الى الاختلاف في الطباع والعادات، ومتى كانت هذه متغايرة والاخلاق متباينة جر ذلك الى النزاع في المعاملة والتنافس في المصلحة ثم ان ابناء الجنس الواحد متى وجدوا بين أجناس اخرى ينبت فيهم نوع من العصبية والتألف يحملهم على الثورة والخروج عن الطاعة لاقل سبب واوهى حجة، ولهذا كانت سياسة الدولة العلية في امورها الداخلية من اصعب السياسات لان رعيتها مختلفة الاجناس والاديان فقد كانت من وقت غير بعيد صاحبة السيادة على العرب وبوسنه والجبل الاسود واليونان والبلغار وقبرص وقد اصبحت هذه البلاد اليوم في معزل عن حكمها وسيادتها،